مداخلة د/لطرش حنان
استاد محاضر" أ"
جامعةالامير عبد القادر للعلوم الاسلامية

حقيقة استنجاد سكان المغرب الاوسط بالاخوة بربروس

The fact that the people of Central Morocco called for help from the Barbaros brothers

ملخص:

تعد المصادر و الوثائق العثمانية إحدى أهم المصادر التاريخية الأساسية لدراسة تاريخ الدولة العثمانية عموماً، وتاريخ المغارب خصوصاً خلال الفترة الحديثة و ذلك أن مبنى أرشيف رئاسة الوزراء في إستانبول يحتوي على ملايين الوثائق العثمانية التي تتناول تاريخ المنطقة العربية، وتحتاج إلى قراءتها وتحليلها وتفكيكها، من أجل تصحيح الكتابات التاريخية التي كتبت بطريقة تفتقدإلى العلمية التاريخية وإلى غياب قراءة تاريخية تستند إلى هذه الوثائق المهمة، كما أن الاعتماد على ما كتب من قبل المؤرخين الغربيين الذين حاول العديد منهم طمس الحقائق وتحريفها لصالح القوى الاستعمارية التي هيمنت على المنطقة العربية والمغاربية منذ نهاية القرن 15 م من منطلق صليبي استعماري ، يستهدف الدولة العثمانية، باعتبارها الدولة الإسلامية الموحدة للمسلمين في تلك الفترة، وبغض النظر عن هذه الخلفيات فإنه آن الأوان للدراسات التاريخية العربية أن تتخلص من هيمنة التحليل النظري الانطباعي نحو ترسيخ منهجية التاريخ العملي التطبيقي الذي يستند إلى تحليل الوثائق والمصادر، وتشريحها بشكل علمي ومنهجي مع تحرى الدقة،لكشف الحقائق التاريخية التي ظلت خفية علينا على مدار قرون. وتعد مسألة عدم معرفة الباحثين والمؤرخين العرب باللغة العثمانية، وعدم قدرتهم على قراءة الوثائق العثمانية، وترجمتها إلى اللغة العربية أحد أهم العوائق الكبيرة التي عطلت مشروع إعادة قراءة تاريخنا العربي خلال حكمها من قبل العثمانيين .كما ساهم هذا في طمس العديد من الحقائق، وتزويرها، بل وأصبحت تدرس في مدارسنا وجامعاتنا، مما زاد في عملية تشويه الوعي التاريخي،كما ساهمت القوى الاستعمارية المنافسة للدولة العثمانية في تزوير والتحريف للحقائق التاريخية لانجاح مشروعها الاستعماري .

الكلمات المفتاحية: الاخوة فترة بربروس- العثمانيون- المغرب الاوسط-استنجاد

summary:

Ottoman sources and documents are considered one of the most important and basic historical sources for studying the history of the Ottoman Empire in general, and the history of the Maghreb in particular during the modern period, as the Prime Minister's Archives building in Istanbul contains millions of Ottoman documents that deal with the history of the Arab region, and they need to be read, analyzed and disassembled, in order to Correcting historical writings that were written in a way that lacks historical scienceAnd the absence of a historical reading based on these important documents, and the reliance on what was written by Western historians, many of whom tried to obscure the facts and distort them in favor of the colonial powers that have dominated the Arab and Maghreb region since the end of the 15th century AD from a crusader-colonial standpoint, targeting the Ottoman Empire, As the unified Islamic state for Muslims in that period, and regardless of these backgrounds, it is time for Arab historical studies to get rid of the dominance of impressionistic theoretical analysis towards establishing the methodology of applied practical history that is based on analyzing documents and sources, and dissecting them in a scientific and systematic manner with the pursuit of accuracy, to reveal the facts. History that has remained hidden from us for centuries. The issue of Arab researchers and historians' lack of knowledge of the Ottoman language, and their inability to read Ottoman documents and translate them into Arabic, is one of the most important obstacles that hindered the project of rereading our Arab history during Ruled by the Ottomans. This also contributed to the obliteration and falsification of many facts, and they were even taught in our schools and universities, which increased the process of distorting historical awareness. The colonial powers competing with the Ottoman Empire also contributed to falsifying and distorting historical facts for the success of their colonial project.

Keywords: The Brotherhood of Barbarossa - The Ottomans - The Central Maghreb - Istijad

تمهيد:

تعتبر الجزائر واحدة من أهم الإيالات العثمانية التي طمس تاريخها، وزور بعد أن قام الاستعمار الفرنسي باحتلالها، وسرقة كل أرشيفها حتى لا يتمكن أبناء الجزائر من الباحثين والمؤرخين من الاطلاع عليه، ومعرفة مسارات التاريخ الجزائري خلال العهد العثماني، وكذلك معرفة السياسة الاستعمارية الفرنسية للجزائر وحقيقتها ،مما جعل جل الباحثين يعتمدون في كتابة التاريخ الجزائري خلال الفترة الحديثة من خلال المصادر الفرنسية والغربية المتحاملة على الدولة العثمانية التي بدأ مشروع تقسيمها واستهدافها بشكل فعلي مع احتلال
الجزائر سنة 1830 م

لذلك نحتاج إلى جهود متميزة لبعض المؤرخين الجزائريين حول تاريخ الجزائر في العهد العثماني ، من أجل قراءة تاريخية وتحليلية شاملة لتاريخ الجزائر العثمانية

وقد قمنا من خلال مداخلتنا بدراسة موضوع استنجاد سكان الجزائر بالاخوة بربروس االستناد إلى جملة من الوثائق والمصادر التي عايشت تلك الفترة منها
مذكرات خير الدين بربروس إلى جانب الوثائق العثمانية إحدى أهم المصادر والشهادات التاريخية التي نسفت تلك الصورة النَّمطية وحتى نقف على حقيقة ما ذهب إليه العديد من المؤرخين من أن التدخل العثماني للجزائر كان تدخلاً استعماريًّا من أجل أخذ ثرواتها وممتلكاتها.

أولا-أوضاع المغرب الاوسط اواتخر الفرن 15 بداية الفرن 16م:

عرف العام الاسلامي في شمال افريقيا في اواخر القرن الرابع عشر و بداية القرن الخامس عشر وبداية اختلال التوازن بن العالم الاسلامي والعالم الغربي المسيحي حيث بدأ العالم الإسلامي يتراجع عكس العالم الغربي الذي بدا يعرف النهضة و التطور و التحرر والتي مكنته من استغلال قوته الجديدة لاسترداد أراضيه التي فتحها المسلمين و السيطرة علي حوض البحر الأبيض المتوسط و استطاع فرض سيطرته علي الضفة الجنوبية بقيادة اسبانيا و البرتغال و ممارسة الاضطهاد ضد سكان المدن الساحلية لدول شمال افرقيا ، فلم يجد هؤلاء حامية لهم سوي اخوين تركيين من أصل يوناني كانا مجاهدين في وسط البحر قد ذاعت
شهرتهما للقريب و البعيد عن مدى استعدادهما للجهاد وحماية مسلمين والتصدي للتحالف المسيحي الذي استفحل في المتوسط بقيادة اسبانيا والبرتغال وقبل التطرق لحقيقة وجود الاخوة بريروس قي المغرب الاوسط وجب التعرف على الاوضاع بالمغرب الاوسط من خلال التعرف

1*دوافع التحرشات الايبرية على السواحل المغاربية:

لقد كانت دوافع التحرشات الاسبانية على السواحل المغاربية متعددة بين دوافع دينية وسياسية واقتصادية، فقد كانت حرب الاسترداد المسيحي في شبه الجزيرة الايبيرية تجري على أشدها من قبل الممالك المسيحية ضد البقية الباقية من الوجود الإسلامي في الأندلس ؛فالتطورات السياسية بالإضافة لتطورات الاجتماعية والاقتصادية والدينية التي استجدت في الغرب الاروبي في القرن 14م، ولم يكن العامل الاقتصادي بالإضافة للعامل الديني هما المحركان الوحيدان للاستعمار الايبري لبلدان المغرب الإسلامي؛فالعامل السياسي الذي دفع كل من اسبانيا والبرتغال إلى ملاحقة المورسكيين في الشمال الإفريقي وبلاد المغرب عامة والقضاء عليهم وضمان عدم معاودة مهاجمة السواحل الايبرية أو القيام بأية مؤامرات ضد الوجود المسيحي داخل شبه الجزيرة ؛هذا إلى جانب رغبتهم في الانتقام من بلدان الشمال الافريقي التي كانت تعد منذ اوائل القرن 16 مراكز الغارات البحرية ضد السفن والسواحل الاروبية [1].

كما أن رغبة الدول الاروبية الرائدة في ذلك الوقت خاصة البرتغال واسبانيا دافعا قويا لظهور الحركة الاستعمارية التي كانت سببا هاما في تغيير الاوضاع الاروبية في القرن 16.

2 - الظروف التي سبقت الجهاد البحري:

مما سبق يمكننا تلخيص ظروف الجهاد البحري إلى أسباب رئيسية :

ففي شبه الجزيرة الايبرية (الاندلس) ومند القرن 12م انكمشت دولة الاسلام في غرناطة وملوكها بنو الاحمر وقد هاجرها كثير من علمائها مما تسبب في ضعف المسلمين بالاندلس وفي مقابل ذلك ازداد النفود الاسباني يزداد حيث أصبحت غرناطة محاطة بمماليك مسيحيين معادية تتربص بها وبدأ البرتغاليون كما سبق وأشرنا الشواطئ المراكشبة فيما يعرف باسم الكشوف الجغرافية حيث استولوا على سبتة عام 1415م وعلى قصر المجاز عام عام 1457م وعلى طنجة عام 1464مكما ان الاسبان استولو على جبل طارق في 1464م وعلى مدينة بونة 1462م وقد نجح الاسبان و البرتغاليون في ذلك بسبب الشقاق في أقطار المغرب بين المسلمين سواء سواء بين بين مرين وبني حفص في الاقطار المغربية أو بينهم وبين بني الاحمر في غرناطة وكانت نتيجة ذلك عزلة مسلمي الاندلس عن المساعدة التي قد تأتيهم من إخوانهم في الأقطار المغاربية وأصبحت دولة غرناطة محصورة بأساطيل الاسبان الكاثوليك

[1]- أحمد توفيق المدني،المرجع السابق،ص76.

من جهة الجنوب والشرق وجيوشهم البرية من جهة الشمال والغرب ومازالوا يضيقون الحصار على غرناطة حتى استولوا عليها عام 1492م[2] ،وهكذا سقطت الاندلس في يد الاسبان الكاثوليك الدين أخدوا في إزالة كل اثر إسلامي وتحويله إلى مؤسسات مسيحية أما المسلمين الذين بقوا هناك أرغموا على اعتناق النصرانية ومن ثم عرفوا باسم المورسكيين ومن أثر التمسك بدينه فر إلى الأقطار المغربية [3]،

أما على المستوى الاسلامي فقد ضعفت قوة الموحدين في الشمال الافريقي فزادت بناءا على ذلك الفتن والاضطرابات والانقسامات الداخلية وخاصة بين أمراء القبائل البربرية في الشمال الافريقي الى ثلاث اقسام رئيسية عملت على السيطرة على اقاليم المغرب الكبير وفي تفس الوقت حاولت كل امارة السيطرة على الاخر فكانت سلطة بني مرين في المغرب الاقصى ؛بني حفص في اقليم تونس؛وبنو زيان في المغرب الاوسط ومند مطلع القرن 14م ازدادت افريقيا ضعفا وفرقة خاصة بعد ضعف بني مربن وانحصارهم في المغرب الاقصى واحتدام الفتن والمشاكل الداخلية التي انهكت قواها[4]،وأدى ذلك الى الانقسام والفرقة وتمكن الاسبان والبرتغال من مد نفوذهما بمباركة البابوية.

ثانيا- الجزائر وأهميتها في ميزان الصراع العثماني الإسباني خلال القرن16:

الحقيقة إن الجزائر كانت إحدى أهم الإيالات العثمانية التي لعبت دورا بارزا في منطقة شمال إفريقيا .وقد مثلت محور صراع كبير بين العثمانيين والإسبان خلال القرن 16 م، فهناك وثائق عديدة تعرضت للحديث عن هذه المواجهة
الحادة بين القوتين المتنافستين حول الجزائر، وذلك لإدراك كل واحدة منهما بأهمية العمق الإستراتيجي الذي كانت تتمتع به الجزائر بشكل خاص، فهي من ناحية توجد في شمال إفريقياو من ناحية أخرى تقع جنوب أوروبا، مما يجعلها
تتحكم في المجال الحيوي الذي تتحرك فيه القوى الأوروبية في منطقة البحر الأبيض المتوسط .كما أنها تطل على مضيق جبل طارق الذي يعد أهم الممرات المائية المتحكمة في التجارة العالمية، ولذلك كانت مسألة السيطرة على المغرب الاوسط خلال القرن 16 م حيث انطلقت الحملات التوسعية الإسبانية نحو المغرب الاوسط ومحاولة السيطرة عليها منذ سنة 1505 م، وقد واجهوا مقاومة شديدة
من قبل أهالي الجزائر الذين فشلوا في صدها، بسبب اختلاف ميزان القوى وما يتمتع به الغزو الإسباني من قدرات وإمكانيات عسكرية كبيرة، وكذلك بسبب ضعف حكام الجزائر الذين دخلوا في تحالف مع الأسبان

---

[2] -رأفت الشيخ،مرجع السابق،ص369

[3] -عزيز سامح الترك،الاتراك العثمانيون في شمال افريقيا،بيروت ،دار النهضة العربية،ص154.

[4] -احمد سالم،السيطرة العثمانية على الحوض الغربي للبحر الابيض المتوسط في القرن 16،مؤسسة شيماء،الجامعة ص104.

من أجل الحفاظ على حكمهم، ولم يكن يهمهم استقلالية الجزائر وحماية أراضيها .وقد نجح الإسبان في السيطرة على أهم المواقع الإستراتيجية في المغرب الاوسط

وقد كان لضعف دولة بني زيان تأثير سيئ على الأوضاع في المغرب الأوسط ، حيث انقسمت على نفسها الإمارات صغيرة متفككة و متناحرة كإمارة جبل كوكو * بالقبائل و إمارة بني حفص بقسنطينة وبني جلاب بتوقرت وواد ريغ ، وإمارة الثعالبة * بجزائر بني مزغنة وقد شجع الإسبان بشكل كبير هذا الانحلال و الضعف ، لتسْهل عليها مهمة غزو موانئ و مدن الساحل المتوسطية[5]. حيث تمكنوا من الاستيلاء على عدة مدن ساحلية منها :

1-احتلال المرسى الكبير 1505

عندما صح العزم من الملك فردناند الكاثوليكي على المشروع في غزو سواحل المغرب الأوسط ، فقد تطوع الوزير الكاردنال خمنيس من ماله الخاص لتجهيز الأسطول* ، فغادر الأسطول الإسباني مالقة* ، يوم 29 أوت 1505 م ، وكان يقوده **دون رايموند دي** قرطبة وتحت إمرته حوالي حوالي خمسة آلاف رجل ووصل الأسطول المرسى الكبير* يوم 11 سبتمبر ، وكان قد تأخر بسبب رياح معاكسة كانت في صالحه لأن المجاهدين عندما سمعوا إقلاع الأسطول من إسبانيا قد انتظروا كثيرا وملوا من متابعة الأحداث وقلت لديهم المؤمن ، فرجع أكثرهم إلى دياره[6]،ووصل أسطول الإسبان ، ولم تكن بيد الفرقة

---

* إمارة جبل كوكو : وهي إحدى الفروع المنفصلة عن إمارة الدولة الزيانية ، وكان يحكمها رجل اسمه ابن قاضي ، وهي القسم الغربي من جبال القبائل الكبرى ، وكانت لهذه الشخصية أحداث عظيمة مع القائد المجاهد البربروسي خير الدين ، أما القسم الشرقي من تلك الجبال فكان يحكمه الأمير عبد العزيز الحفصي ، وعاصمته قلعة بني عباس وكان النزاع قائما بين الإمارتين لمدة زمنية طويلة .

* وكانت هناك مجموعة من القبائل الكبرى تعيش في ضل هذا التطاحن ، فكانت القبائل العربية منها قبائل الثعالبة وهي من العرب المعاقيل يتوطنون بالمتيجة وضواحي مدينة الجزائر ، وقبيلة الضحاك ، وعياد يتوطنون جهة حمزة – البويرة حاليا – ، وقبيلة عطاف غرب مدينة مليانة ، وسويد في هضاب وسهول السرسو إلى واد مينا ، و ملك يتوطنون البقاع التي حوالي مدينة وهران ومرساها الكبير .

[5] يحي ، بوعزيز : الموجز في تاريخ الجزائر – جزائر حدينة – ، ج2 ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، ص 254 ، 255 .

*كان نتيجة القوة الإسبانية اكتشافات بحرية ، فتم اكتشاف أمريكا الجنوبية و الهجرة إليها عام 1504 م ، واكتشاف البرتغال لطريق الهند عام 1498 م ، ورحلات ماجلان عام 1519 م و 1522 م .

*مالقة : إحدى المدن الإسبانية .

*المرسى الكبير : كان هذا المرسى في القديم يتمتع بشهرة فائقة نظرا لموقعه الاستراتيجي ، فلقب بالمرسى الإلهي خلال الفترة الرومانية أو Portus Divinus ، احتله البرتغال عام 1415 م و أخرجوا منه عام 1437 م ، ثم أعادوا الكرة عام 1471 م ، وطردوا منه مرة أخرى عام 1477 م ، ثم هاجموه و فشلوا عام 1501 م .

[6]أحمد توفيق المدني : المرجع السابق ، ص 96 .

الصغيرة المتبقية من حيلة أمام جيوش عتيدة ، عندئذ اجتمع أهل المدينة ورأوا وجوب تنظيم مقاومة شعبية والدفاع عن المدينة شبراً شبراً .[7]

واستؤنفت المعركة من يوم الجمعة فقذفت مدفعية الحصون الإسلامية أساطيل العدو وبقذائف من الحجارة تزن أربعين رطلا واستمرت المعركة إلى الليل ، واجتمع الأهالي في دار المزوار ، واتفقوا على الانسحاب ، وحدد لهم الإسبان بعد موافقتهم على هذا الفرار مدة ثلاثة أيام واشترط عليهم ألا يأخذوا شيئا من الزاد والمؤونة ولا من الحيوانات للجر ولا الأسلحة ، وأنصرف الإسبان لتحصين المدينة ورفعوا فوقها أعلامهم [8]،وأسلم المرسى بعدها أمره إلى بيدرونافارو(Pedro Navaro)، بعد حصار دام شهر ونصف في 23 أكتوبر 1505 م ، بعد فترة قضاها في مهاجمة السفن البربرية و النصرانية من دون ميز على حجر باديس Perion de velez الموجود في المغرب الأقصى .

2-احتلال وهران 1509م:

انتقل الاسبان الى وهران* التي ذبح فيها أربعة آلاف ، وأسر ثمانية آلاف من الرجال وحول مسجدين إلى كنيستين* في ماي 1509 م[9] حيث عين الملك الاسباني فرديناند الكاردينال خمينيس قائدا على الحملة الموجهة لاحتلال مدينة وهران ؛فقام هذا الاخير باعداد الحملة التي انطلقت من ميناء قرطاجنة الاسباني في 7ماي 1509م مكونا من 15000جندي ؛اقلته 33باخرة حربية و51زورق وقد نزلت هذه القوات الى البر دون عائق خاصة بعد أن التحقت بها قوات الاسطول الاسباني الذي كان مرابطا بالمرسى الكبيروكان الجزائريون قد استعدوا مواجهة العدو خارج أسوار المدينة واشتبكوا معهم

---

[7]أحمد توفيق ، المدني : المرجع السابق ، ص 97 .

[8]بسام ، العسلي : المرجع السابق ، ص 98 .

*وهران : وهي مدينة حصينة بناها محمد ابن أبي عون وجماعة من الأندلس ، وهناك من يرجعها إلى خزر بن صولات من قبيلة مغراوة البربرية سنة 915 م ، وأهلها موصوفون بعظم الأجساد ، والشدة ، وقد يصل الطويل من غيرهم إلى منكب أحدهم ، ويحمل الرجل منهم ستة من رجال غيرهم ، فيحمل على عاتقه رجلين وبين يديه رجلين ، وتحت إبطه رجلين منهم ، وبينها وبين تلمسان مرحلتين ولمدينة وهران أبراج هي : برج الهين ، وبرج الجديد ، وبرج بني زروال ، وبرج بن زهورة ، شهدت المدينة في ظل السيطرة الزيانية و المرينيةوالحفصية انتعاشا واسعا لمواد العاج وجلود النعام و الحبوب و الخضر ...وغيرها وكثر عليها تردد تجار مدن بيزة و البندقية وجنوة و مرسيليا و القطلانيون و زادت منازلها في هذه الفترة إلى ستة آلاف منزل وتعددت مساجدها وفنادقها ، ووصل إليها التجار من كل الأصقاع من مالي وواحات توات الصحراوية .

*وأعطوا اسما لإحدى هذه الكنائس ، فكانت تعرف بكنيسة القديس ميقيل ، وأقاموا بها أول قداس لهم ، واحتلوا هذه القرية على عهد السلطان الزياني أبي حمو موسى الثالث الذي يلقب بيوقامون ، وحصن الإسبان أنفسهم بالمرسى وقريته .

* وما نشير إليه أن المرسى الكبير كان خلال القرن الثاني عشر ميلادي من المراكز المهمة في دولة الموحدين إذ أنه كان مركزا للعمارة البحرية الضخمة التي أنشأها بطل المغرب و الإسلام عبد المؤمن بن علي رأس الدولة الموحدية .

[9]شارل ، آندري جوليان : المرجع السابق ، ص 324 .

في معارك شرسة ،الا أنه في الوقت الذي كانت فيه المعركة على أشدها قام حاكم المرسى الكبير بشراء ذمة أحد اليهود الأندلس اللاجئين الى وهران يدعى شطورا وكان هذا الأخير يعمل قابضا عاما للضرائبوقد كان الاتفاق على أن يقوم هذا الاخير بفتح أحد أبواب المدينةلجنود الاسبان فدخل الاسبان على إثرها وذخلوا المدينة من كل الابواب في كل الجهات يقتلون ويحرقون وقد استمرت المقاومة حوالي خمسة أيام راح ضحيتها حوالي 4000 جزائري واسر اكثر من 8000جزائري اخدوا الى اسبانيا وقد دفع سقوط وهران الملك الزياني أبا حمو الثالث الى اعلان تبعيته الى الاسبان وتعهد لهم بان يدفع لهم جزية سنوية قدرت ب 12000دوقة دهبية و12 فرسمن جياد الخيل و6 من طيور الباز الجارحة،وقد تمكن الاسبان من بسط نفودهم على سائر الغرب الجزائريكنا سرعت الكثير من المدن الى اعلان تبعيتها للاسبان خوفا من بطشهم وذلك بعد أن تأكد لهم عجزها عن المقاومة منها دلس ومستغانم وشرشال.[10]

3-احتلال بجاية 1510:

احتلوا بجاية* وتنس* عام 1510 م لقد وصل الاسطول الاسباني المكون من 20سفينة تحمل 10000مقاتل الى بجاي يوم 5جانفي 1510م و قد التحمت المعركة بين الطرفين بعد ان تم اخلاؤها من الاطفال والنساء ،غير أن المدافعين عن المدينة غادروها بعد أن تأكد لهم الفشل وكان أول المنسحبين الملك عبد الرحمان الحفصي وقد استشهد حوالي شهيد4100، وبعد أن ثبت النفود الاسباني في بجاية أذنوا للاهالي للعودة إلى منازلهم فرجع الكثير منهم كما بايع الكثير منهم الأمير أبا بكر الذي كان يحكم قسنطينة باسم الحفصين والذين كانوا يناوشون الاسبان تحت قيادته.

4-خضوع مدينة الجزائر سنة 1511م:

كانت مدينة الجزائر في هذه الفترة تابعة لمملكة بجاية ؛يتولى ادارتها الشيخ سالم التومي شيخ قبيلة الثعالبة التي كانت تعيش في سهول متيجة ومدينة الجزائر وعندما سقطت بجاية ووهران خشي أهلها ان

---

[10]أحمد توفيق المدني : المرجع السابق ، ص ص 104 ، 105 .

*بجابة : وهي مدينة عظيمة ذات علم وعلماء ، وهي مرسى عظيم في جون عظيم يمنع من كل ريح ، له مدخل ضيق في جبال شاهقة احتلها الإسبان عام 1510 م ، وحررها صالح رايس عام 1555 م .

*تنس : وهي مدينة ساحلية بناها البحريون الأندلسيون ومن معهم عام 262 هـ ، وأهلها من ولد إبراهيم بن محمد بن سليمان ، وينتهون عند نسب علي ابن أبي طالب τ وبها فواكه وقلاع ومزارع ، وهي على نهر يسمى تنانين وهذا حسب كتب الرحالة العرب ...أنظر مولاي بن حميس ، الجزائر من خلال رحلات المغاربة .

يصيبهم نفس المصير،لذلك أجمع اعيانها بعد تشاورهم أن يرسلوا وفد منهم الى بجاية للتفاوض مع الاسبان للوصول الى اتفاق يحفظ لهم حياتهم وفعلا وصل الوفد بعد أيام من سقوط بجاية بقيلدة سالم التومي الى قائد الحملة الاسبانية بيدرونافارو حيث اتفق الطرفان على مايلي :عقد سلام بين مدينة الجزائر والاسبان ؛تعهد الجزائريين باطلاق سراح الاسرى المسيحيين؛يسلفر وفد الى اسبانيا لعقد اتفاق نهائي مع الملك؛يدفع الجزائريون لحاكم اسبانيا ببجايةأن يدفعوا له نفس المال الذي كانو يدفعونه للملك الحفصي ،وسافر الوفد الى اسبانيا فعليا سنة 1511م حيث اتفق الطرفان على أ ن يسلم الجزائريون أكبر جزرهم الصخرية للاسبان لكي يقيمو عليها قلعة تحرس سفنهم التجارية وتضمن حرية مواصلاتهم البحرية والتي صارة تعرف بقلعة البنيون.

5-خضوع مستغانم* عام 1511 م:

لقد قام أهالي مستغانم بالاتصال بالاسبان اثر احتلال بجاية وعنابة عارضين تبعيتهم لهم مقابل التزامات مالية وأدبية بناءا على اتفاقية من جملة ماجاء فيها،اعلان تبعية ميتغانم الى اسبانيا؛دفع الرسوم الى الملك الاسباني بدل الزياني؛اطلاق سراح جميع المعتقلين الميسيحيين؛يلتزم أهالي المدينة بتسليم القائد الاسباني كل ما يحتجونه من حيوانات ومواد بناء بأسعار محدودة كما يلتزم أهالي المدينة بتمويينندينتي وهران والمرسى الكبير ولا يسمحون مطلقا بتعمير أوتفريغ أي سفينة الا بادن من الملكين.

-كما انظمت كل من دلس وهنين* ، ولم تأت سنة 1512م حتى كانت معظم مدن الساحل الجزائري قد وقعت تحت الاحتلال الاسباني، وظلت سواحل المغرب الأوسط تحت سيطرت الإسبان إلى أن ظهر الإخوة بربروسة في مياه المتوسط و أعادوا الحق لأصحابه ، فاشتهروا بردهم للعدوان وحماية كل من هو مضطهد ، فجعلوا راية الإسلام والجهاد هي الراية العليا[11].

ثالثا- مفهوم القرصنة العثمانية بين معنى اللصوصية و معنى الجهاد:

تتفق أغلب الدراسات التاريخية حول الدور المحوري الذي لعبه الأخوان عروج وخير الدين بربروس في مسألة دخول الجزائر تحت ظل الحكم العثماني منذ بداية القرن 16 م، أن خير الدين بربروس وأخاه

---

*مستغانم : مدينة ساحلية بين آرزيو وتنس على نحو 15 كلم ، غرب مصب نهر الشلف ، ذات أعين وبساتين ، اشتهرت بزراعة القطن .

*دلس : مدينة عتيقة بين الجزائر وبجاية ، كانت في القرن 16 م يحيط بها سور متين وكان أهلها يتعاطون الصباغة لكثرة المياه والعيون و الجداول ، أما هنين فهي مرسى جديد مقصود بها بساتين وضروب وثمر مدينة صغيرة وحسنة وعامرة بالسكان احتلها الإسبان عام 1531 م إلى 1534 م .

[11]عبد الرحمن جيلالي : المرجع السابق ، ص ص 13 ، 15 .

آمنوا منذ انطلاقهم بمشروع الجهاد البحري، وقدموا خدمات كبيرة لإنقاذ مسلمي الأندلس و .مسلمي شمال إفريقيا من سياسة التنصير التي مارسها الاحتلال الصليبي الإسباني ، وعلى غير ما ذهبت إليه أغلب الدراسات التاريخية من أن بربروس ومجموعته كانوا مجرد قراصنة وقطاع طرق يغورون على السفن الأوروبية ويسلبونها وينهبونها، وأن العثمانيين قد دخلوا الجزائر محتلين غاصبين، مثلهم مثل الإسبان والفرنسيين، إلا أن هذه الصورة كانت مجرد انطباعات وأحكاما تحركها خلفيات إيديولوجية وانحيازية غيرموضوعية، لا تستند إلى أي دليل تاريخي أو مصدر علمي يؤكد ذلك .بينما نجد خير الدين بربروس نفسه يفند مثل هذه الصورة في مذكراته من خلال رد أخيه عروج على سلطان تلمسان الذي تحالف مع الإسبان ضد العثمانيين قائلا له :" **أيها الملعون، يامن جعلت نفسك عبدا لسيدك ملك إسبانيا،ألم تعلم أن ملكك هذا قد أعمل السيف في رقاب مئات الآلاف من مسلمي الأندلس؟ !نحن لسنا قراصنة بل مجاهدون نقاتل في سبيل الله ولله الحمد"**

إن مثل هذا الجواب وهذا النص دليل يلخص بكل موضوعية وعلمية الخلفية التي كانت تحرك عروج وخير الدين بربروس والعثمانيين بشكل عام من قدومهم إلى شمال إفريقيا، والدوافع التي جعلتهم يخوضون كل هذه المعارك والمواجهات ضد

الاحتلال الإسباني قائد المشروع الصليبي الأوروبي، كما أن هذا النص ينفي الاتهامات التي تصور العثمانيين على أنهم محتلون غاصبون، قدموا إلى المنطقة لقتل الأهالي فيها، وهو ما فنده خير الدين الذي يذكر في عدة مواطن من مذكراته حيث وضح أنه كان يوزع الغنائم على الفقراء، كما أنهم قاموا بإنقاذ آلاف المسلمين الأندلسيين الهاربين من البطش الإسباني، ووطنوهم في عدة

مناطق من شمال إفريقيا، يقول خير الدين في مذكراته التي تعد أهم مصدر عثماني يمكن من خلاله أن نفهم خلفيات تواجد الإخوة بربروس في منطقة شمال إفريقيا، يقول :"...كان مقصدنا الذهاب إلى مضيق سبتة الذي يقع في

.نهاية البحر المتوسط، على أن نمر من هناك إلى الأندلس لإنقاذ من نقدر عليه من إخواننا في الدين..."

ولعل طلب عروج من سلطان تونس يعكس بشكل مباشر حقيقة هذا المعنى الجهادي والخيري للقرصنة العثمانية، حيث قال".. **وقد قلنا له نريد أن تتفضل علينا بمكان نحمي فيه سفننا بينما نقوم بالجهاد في سبيل الله وسوف نبيع غنائمنا في أسواق تونس فيستفيد المسلمون من ذلك وتنتعش التجارة كما ندفع لخزينة الدولة ثمن مانحوزه من الغنائم** ..."

اظافة لفرحة خير الدين الذي عبر في مذكراته فرحة انتصار عساكر الإسلام في الجزائروهزيمة الصليبيين وملكها كارلوس، يقول :"**... انتصرت عساكر الإسلام وارتفعت راية الترك وانهزمت إسبانيا التي كانت تعتبر أكبر دولة كافرة أمام أخي عروج، ومرغ الله وجوه الكافرين، آمين بحرمة سيد المرسلين**..."

ونحن هنا كباحثين نعتمد على هذا النص وعلى مذكرات خير الدين بربروس، لأنها تعد وثيقة عثمانية أصلية معاصرة وشاهدة على الأحداث، وصادرة عن خير الدين بربروس نفسه الذي يمثل أحد أهم الفاعلين في الدخول العثماني إلى الجزائر وإلى شمال إفريقيا، وسيبقى هذا المصدر دليلا قاطعا ما لم يظهر دليل آخر يفنده ويدحضه.

رابعا- استنجاد اهالي المغرب الاوسط بالاخوة بربروس

1- استنجاد أهالي بجاية: لقد اتصل بهم علماء وأعيان بجاية وحتى أمير قسنطينة أبو بكر الحفصي لنجدتهم ،فعمل الأخوان على استرجاع مدينة بجاية التي ضاعت قبل سنتين من وصلهما إلى جربة ، وذلك بالدعم من السلطان تونس لأنها تعد من أملاكه الخاصة ،وبعد حصار المدينة فشلا في استرجاعها وعاد الأسطول إلى تونس بعد أن فقدا قسما من سفنه في معركة قاسية مع البحار دوريا* .[12] وترجع أسباب الهزيمة أو الهزائم التي مني بها الإخوة بربروسة في بجاية إلى سوء الأحوال الجوية ،ووصول المدد الإسباني في الوقت المناسب ، وكان من جملة دواعي تفطن الإسبان وكثرة التحركات في المتوسط خلال هذه الفترة ، هو استيلاء بربروسة على سفينتين من بلاد جنوة* ، واعتبر هذا العمل سابقة خطيرة وأنه جزء من أعمال القرصنة البحرية[13] ،ومن جهة أخرى قلة المؤونة والعتاد وحصانة المدينة ، ورغبة السكان* في التوجه نحو حقولهم و مزارعهم لممارسة حرفهم وجني محاصيلهم وتأمين أقواتهم ، ومنه وَلَوْ ا* ظهورهم نحو فكرة الجهاد وصدوا عن مساعدة بربروسة[14] ،وما زاد في تأزم الوضع هو الحصار البحري الذي تعرض له عروج لمدة أربعة وعشرين يوماً حتى نفذ البارود ، وفي ذلك أن

---

*القائد آندري دوريا : Andri Dora ، من قياد البحر الإيطاليين ،كانت له أعمال عظيمة وهو سليل بيت من أكبر بيوت مدينة جنوة ،ورث عن أبيه فن الحرب وحب المغامرة ،وعشق الأمواج ، خدم ملك فرنسا فرانسوا الأول ثم شارلكان .

[12]كورين شوفاليه : المرجع السابق ، ص ص 26 ، 27 .

*جنوة : وهي مدينة ذات طابع تجاري منذ القدم من ايطاليا ،وعناصرها يلقبون بالجنويز .

[13]عبد الرحمن جيلالي : المرجع السابق ، ص ص 36 ، 37 .

*بني العباس : قصر على بعد 225 كلم من بشار ، وهي مجموعة قبائل متحدة ، متصلة بسفح جبل صغير على سفر الوادي ، بها فاكهة وخضروات وبساتين ، وبإحدى قراها كان الشيخ سيدي عبد الله وهو من المرابطين ، وكان من أنصار الترك في مواجهة السعديين في عصر مولاي زيدان ، استولى على سجلماسة الصفرية عام 1611 م .

* سبق أن ذكرنا أن العرب ولو عن الجهاد ، فحسب رأينا هو قلة التوجه الديني أو كثرة الطرقية ، التي توجهت في هذه الفترة إلى المصالح الخاصة ، خاصة بعد التفوق بين الحفصيين و الزيانيين و السعديين و الصراع بين القبائل المتفرقة ، وانتشار طابع الخرافة على العباد أكثر من المذهب المالكي .

[14]عثمان ، الكعاك : المرجع السابق ، ص ص 271 ، 272 .

السلطان الحفصي رفض إعطاءهم المدد و المساعدة[15]،فلم تحرر المدينة في المرتين الأوليين ، كذلك حدثت للبطل التركي جراحة في الحرب فأصيبت ذراعه وتمادي في صفره وهو على هذه الحال ، فأقام مع خير الدين بتونس – جربة وحلق الواد – حتى برئ جرحه وخرجا لمواجهة النصارى وما معهم من قوة .[16]

وفي المرة الأخيرة ومع مساعدة الأمير عبد العزيز* اقتربا من النصر[17]،وبانظمام أفراد عديدون من بين الأتراك والمرتدين عن المسيحية على السواء ، وتراوحت عدد سفنه عام 1510 م ، بين 10 و 12 سفينة وأطلق عليه رجاله بابا عروج ، أي الأب عروج وذلك كعلامة على احترامهم له واعتمادهم على زعامته[18] ،اظافة إلى المدد الذي أرسله مع السلطان سليم الأول و المقدر بأربعة عشر سفينة ، ومحاولاته في البر بدل البحر ، ومساعدات ابن القاضي* الذي حاصر الإسبان من جهة البحر تمكن عروج من استرجاع مدينة بجاية .[19]

2-وبعد ذلك رسى الأخوان بمدينة جيجل لقضاء بعض مآربهما ، وكان إبان تلك الفترة تحت سيطرت الجنويز* منذ عام 1260 م ، فالتمس سكان المدينة المساعدة منهما[20] وتمكنا من استعادتها عام 1514 م واتخذاها قاعدة لهم بدل حلق الواد ، كون المدينة قريبة من الحوض الغربي للبحر المتوسط من جهة ، والتخلص من مضايقات السلطان الحفصي من جهة أخرى[21]، وفي فترة كان

---

[15]المرجع نفسه ، ص 272 .

[16]مجهول : المصدر السابق ، ص ص 40 ، 41 .

*عبد العزيز : الأمير الحفصي و المكلف بجبهة القبائل من طرف السلطان الحفصي ، كان ملكا على قلعة بني عباس وينتمي إلى أسرة ذات نفوذ في البلاد القبائلية الصغرى ، تحالف مع ابن القاضي و الأتراك وقدم عونا كبيرا لعروج خلال محاولاته في الوصول إلى بجاية ، قضى عليه صالح رايس عام 1559 م عندما زادت قوته ونفوذه في البلاد .

[17]عثمان الكعاك : المرجع السابق ، ص ص 272 ، 273 .

[18]وليام سبنسر : المرجع السابق ، ص 31 .

*ابن القاضي : واسمه الكامل ؛ أبوا العباس أحمد بن القاضي العبريني من فقهاء وقضاة الجزائر ، كان تولى إمارة بجاية على عهد الحفصيين ، ثم استقر بالقبائل بنواحي جرجرة ، وأسس إمارة جبل كوكو عام 1511 م .

[19]عثمان ، الكعاك : المرجع السابق ، ص 272 .

*احتل الجنويز ميناء جرجرة – جيجل – سنة 658هـ / 1260م ، وجعلوها مركزا تجاريا لهم ، وكان من أعظمها في ذلك الوقت ، وكان القائد آندري دوريا هو المشرف على هذا الميناء .

[20]عبد الرحمن جيلالي : المرجع السابق ، ص 272 .

[21]عبد القادر حليمي : المرجع السابق ، ص 35 .

عروج* قد باشر تحرير سواحل المغرب ، توفي* الملك الإسباني فردناند ،وكان الإخوة استقروا بميناء جيجل الصغير الواقع على الساحل القبائلي إلى الشرق من مدينة الجزائر.

3- استنجاد أهالي مدينة الجزائر:

انتقل وفد من سكان مدينة الجزائر الى جيجل عام 1516م لتقديم شكوى لعروج وا أن يطلبوا مساعدتهم ليتغلبوا على الوحدة الإسبانية المتمركزة في صخرة البنيون ويضعوا حدا للضريبة السنوية المفروضة عليهم[22].بعد أن تكونت سمعة جيدة وحسنة للأخوة في نفوس سكان الجزائر، خاصة أنهم سئموا سياسة الثعالبة* ، فبعث أغلب السكان رسلا إلى مدينة جيجل التي كانت بيد الأخوان يطلبون حمايتهم كما سبق وأشرنا[23].

دخل عروج مدينة الجزائر على متن سفينتين تحملان ألف تركي ، وهي أول قوة تدخل الجزائر من طرف الأتراك ، ثم دخل خير الدين ومعه 280 جندي ومعدات حربية حديثة ، ولكن هذا الوضع أساء سالم التومي وتذمر، فحاول مع بعض أعوانه التآمر ضدهم واعتراض فتحاتهم [24]،ومن أهم الأعمال التي م قام به عروج حينما تواجد بالجزائر* ، الهجوم على النصارى و التكثيف منها ، وشدد الحصار على حصن الصخرة* ، وقطع عليه المياه و المؤونة[25]، وكان النصارى إذ ذلك قد شددوا على أهل المدينة[26].

---

* تكاد الروايات التاريخية تجمع وحسب ما استطلعناه من خلال دراستنا لهذا الجزء من الموضوع أن الحفصيين بتونس كانوا يخشون من عروج كثيرا حفيضة منهم أنه سوف يزداد قوة وسوف تجتمع حوله الأمة ، فيصبح هو الآمر و الناهي في جزء المتوسط الشرقي ، فلهذا نجد قلت المساعدات والمدد عند محاولته تحرير بجاية أو جيجل لولا تدخل السلطان العثماني سليم ياوز– سليم الأول – .

*نجد أن أمير قلعة بني عباس عبد العزيز قد بذل جهودا كبيرة لفك الحلف الموجود بين ابن القاضي وعروج ، وقد نجح في ذلك في 23 جانفي1516 م ، يوم وفاة فردناند .

[22]وليام سبنسر : المرجع السابق ، ص 31 ، 32 .

*الثعالبة : من قبائل المعقل الهلالية ، كانوا عاجزين عن الترحال فاستقروا بمنطقة التل ،وتغلب عليهم قبيلة توجين ، أيام كانوا بالتيطري ثم ملكيش ، وولاة الجزائر ، ثم انتقلوا إلى متيجة أواخر القرن 7م ، وأدوا المغارم للحفصيين و المرينيين ، وكان رأسهم أول الأمر بسام بن ثعلب بن علي ومر به ابن تمرت فأكرمه ، ثم أجبرهم بنوا زيان على الدخول تحت طاعتهم ...أنظر مبارك الميلي : تاريخ الجزائر في القديم و الحديث ، ج2 ، ص370 .

[23] Diego heado : OPCIT , p17 .

[24]Diego haedo : OPCIT , p17 .

* عند وصول عروج إلى الجزائر و في بداية تأسيس لحكومة الدولة الجديدة ، أزاح أبناء الأوجاق و السكان الأصليين من مناصب الحكومة ،وهم ما عرف بـ " قلري " ، أو ما عرف بالكراغلة ، وأراد دولة من رعاياه ...أنظر وليام ، سبنسر : المرجع السابق ، ص 30 .

*تشير المراجع الأجنبية و على رأسها الثلاثون سنة لقيام دولة مدينة الجزائر لكورين شزوفاليه ، أن سكان الحصن ونتيجة للحصار المضروب عليهم ، كانوا يجلبون الماء من ماروقة ، وبعث على اثرها نيكلاس الخامس حاكم الحصن إلى حاكم إسبانيا في 8 أوت 1516 م أنه بقيت 15 قربة ماء ومؤونة لا تكفي 200 شحص ...الخ .

[25]عبد القادر حلمي : المرجع السابق ، ص 164 .

واجتمع أهل العقد والحل ، وأسندوا لقب أمير الجهاد لعروج وكان هذا عام 1516 م ، وكان تعيينه هذا حاجزا ومانعا من وقوع الجزائر في يدي الإسبان مرة أخرى [27]،غير أنّ سليم التومي قد رأى أن حكمه قد ذهب فانسحب إلى حماية قبيلته في متيجة ،وكان هذا بمثابة مؤامرة لإخراج الزائرين الذين أصبحوا غير مرغوب فيهم ، فتعاون ضدهم شيخ الثعالبة و الإسبان [28]،بعد أن سيطر عروج على المدينة وميناءها أمر بصك العملة وتحصين القصبة ، ونصب فيها مدفعية صغيرة ، ووضع عليها حامية صغيرة من الأتراك ، كما أمر أهالي جيجل بالعودة إلى بلادهم [29]،بعد هذه الإجراءات نجد أن سالم التومي* قد لجأ إلى النصارى الإسبان في مدينة وهران[30]، عمل عروج وهو المعروف بالحكمة العسكرية و الدهاء الحربي على إعادة الفار إلى بلاده مظهرا له الولاء والطاعة ، فقام بشنقه* بقماش عمامته وهو في الحمام *[31].فأخذ القتيل على صهوة الحصان إلى المسجد الكبير حيث ودعوه الوداع الأخير كملك لمدينة الجزائر[32]، ونصب عروج ملكا على الجزائر.

وقد حاول الاسبان استرجاع مدينة الجزائر وقد غادرأسطول إسبانيا في 30 سبتمبر 1516 م بقيادة ديغو ديفبيرا من مدينة قرطاجنة حيث تكونت الحملة من 320 سفينة حربية ، وسفينة نقل على متنها 1500 مقاتل وهناك من أشار إلى أن العدد مكون من 60 إلى 80 سفينة على متنها 8000 رجل[33] ،الأمر الذي جعل الزياني يرسل بكتابه فقد تشجع واستأنس بهذه الحملة وكتب يقول :« ...مولانا الفاضل لقد أوصى أبي بي إلى الملك رحمه الله – يعني فردناند– و الآن أنا تحت حماية الوالي

---

[26]مجهول : المصدر السابق ، ص ص 39 ، 40 .

[27]كورين شوفاليه : المرجع السابق ، ص 30 .

[28]مجهول : المصدر السابق ، ص 31 .

[29]صالح عباد : المرجع السابق ، ص 46 .

* كان سالم التومي قد رشح يحي وهو ابنه البكر ليتولى مهمة ملك ورآسةالثعالبة ، لكن هذا لم يحدث مع قوة الأتراك .

[30]المرجع نفسه ، ص ص 46 ، 47 .

* على إثر مقتل سالم التومي ،كان الإسبان قد جهزوا لحملة بحرية صوب الجزائر ، بالتحالف مع أهل متيجة ، مكونة من ثلاثة آلاف مقاتل ، يقودهم ديغوادي فبرا ، فنزلوا بساحل باب الواد الذي كان مدعما بمنجنيق وقذافة بحرية تجرها عجلة نقل –طمبر– فانهزم النصارى شر هزيمة ،وأسر منهم ألف وخمس مائة رجل حتى عرب متيجة لم يسلموا من القتل ...أنظر صالح عباد : المرجع السابق ، ص 47 .

* عرف القصر الذي قتل فيه سالم التومي بقصر الحنبينة .

[31]مجهول : المصدر السابق ، ص 33 .

[32]وليام سبنسر : المرجع السابق ، ص ص 32 ،33 .

[33]كورين شوفاليه : المرجع السابق ، ص 33 .

* إن كورين شوفاليه مر من خلال ما رأيناه من كتابه يعتمد على جملة منن الوثائق الإسبانية من مخطوطات ، فهو يصور لنا الأحداث كما وقعت من مصادر تركها ارباب السفن ، وكذلك رسائل نيكولاس الخامس حاكم قلعة البنيون ، وهي تقارير لم تصل قائد الحملة ديغوديفيرا .

دوكورلوس*Docorlos أني في خدمته ويفعل بي ما يشاء ...و الذي أحتفظ به منكم هي المنطقة الممتدة من الشلف إلى قبر الرومية*...».[34]

وكتب ديغو دو فيبيرا بدوره رسائل دعم ليتهيأ للهجوم على مدينة الجائر ، فكتب إلى حاكم حصن الصخرة المحاصرة من طرف الأتراك ورسالة إلى أبي عبد الله الزياني ملك تنس وإلى الخونة في الجزائر ، ورسالة إلى يحي بن سالم التومي يقول فيها :« ...أيها الشريف الشجاع و السيد الأمين ،وصلنا وفاة والدكم الأمين ولذا تهيئا لمساعدتنا عندما نصل الجزائر ...ومنه القضاء على الترك ومن ساعدهم من البربر ... وإن الكاردنال قد حملني وصية تخص شرفك وشرف أهلك... » [35]

ونتيجة الفوضى التي وقعت فيها جيوش النصارى لفتوا انتباه الأتراك المتفطنين ، وجرت معارك حسب لها عروج ألف حساب ، خرج على إثرها لملاقات عدوه في عقر داره – قلعة الصخرة – وعم فيهم القتل ، وأجبر ديغوا على الاختباء حتى النهار والتحق بسفنه ورجع إلى بلاده* يحمل أذيال الهزيمة [36]،وهذا الانتصار زاد من هيبة عروج في البحار؛ وتثبت أقدامه في مدينة الجزائر وقضى على أعداء الداخل[37]، وبعدها أسس لنفسه ضربا حقيقيا من الحكم وصل فيه حتى تلمسان ، فكان له الشرف في تكوين النواة الأولى* لدولة مدينة الجزائر وتنظيمها[38].

---

*دومورلوس ، Docorlos : وهومن القادة العسكريين الإسبان الذين قدموا في بداية القرن السادس عشر عندما تم الاستيلاء على مدينة وهران و المرسى الكبير ، وقد عين واليا على المدينة من طرف الملك فرديناند .

* قبر الرومية : وهو موقع أثري لا يزال لحد الآن ، يقع قرب مدينة تيبازة ، وقد مثل به الملك الزياني الحدود للملك الحفصي ، فقد وصل منه إلى نهر الشلف .

[34]عبد القادر حلمي : المرجع السابق ، ص 166 .

[35]AndrerBerbrugger : Le Peguoud'Alger , Alger , (sans) , p29.

*المعروف أن القوات المعادية تحدد الأهداف الضعيفة ، كما فعلت فرنسا عندما وجدت سيدي فرج أضعف نقطة ، فالإسبان لم يحسبوا أن باب الواد منطقة قوية فكانت الهزيمة ، وباب الواد هذا معروف سابقا بباب العرب ، وهو الباب الغربي لمدينة الجزائر ، قريب من ساحل البحر والمنفتح على الفحص المحمي بمنحدرات جبل بوزريعة التي يرقدها وادي المغاسل ...أنظر عثمان ، الكعاك : الموجز في تاريخ الجزائر ، ص 274 .

[36]كورين شوفاليه : المرجع السابق ، ص 34 .

[37]المرجع نفسه ، ص 34 .

*عرفت فترة بربروسة وما بعدها بمرحلة رياس البحر ونعني بها : رؤساء السفن وقبطانتها ،وعرف دخول الكثير من الأجناس في هذه المهنة من المالطيين و الأتراك و المغامرين المورسكيين و الإسبان وغيرهم ، ونجد أن من صفاتهم الشجاعة و الحنكة والقوة ، وكانوا يبحرون في فصلي الشتاء و الربيع ، وإذا خرجوا فمن طلوع الشمس إلى غروبها ، ووصفتهم الكتب الأوربية بأنهم يخرجون للحرب و الصيد كصيد الأرانب ، ولم تكن هناك بحرية تضاهي بحرية الجزائر قوة في كل المتوسط ،وكان الصناع من مختلف الأمصار وعلى رأسهم الأعلاج و الفرنسيون ، فوصلت عدد السفن في عهد خير الدين إلى 60 مركب .

[38]وليام سبنسر : المرجع السابق ، ص ص 32 ، 33.

دفعت هده الانتصارات مابين 1517م و 1518م بسكان المدن المجاورة كالبليدة والمدية ودلس ومليانة وجزء من بلاد القبائل إلى مبايعة عروج أميرا عليهم و قد أقام خير الدين على بلاد القبائل ونصب عليها من طرف عروج حيث كانت إقامته بدلس*[39].

4- أما **حاكم مدينة تنس مولاي أبو عبد الله** راسل ملك إسبانيا وطلب منه المساعدة لطرد الوجود التركي خشية زوال ملكه[40]، فعزم خير الدين في شهر جوان 1517م على أخذ مدينة تنس فتقدم إليها بجيش من المشارقة ، لأن أغلبية الجيش التركي كانت من الجند* القادمين من الشرق ، من أتراك ومغامرين ومن أعلاج وجماعات من سكان البلاد الواقعة شرق الجزائر[41].ومن أسباب تفكير عروج و خير الدين في مدينة تنس أن حاكمها حميد العيد نظر بعين العدو و الكراهة إلى الإخوة ، خاصة وأنه عايش نكبت سليم التومي ، فجهز هذا الأخير حملة* وكعادة عروج لم ينتظر قدومه إليه ، فقد خرج لملاقاته على حين غرة في عقر داره ،وقد وضع خير الدين مكانه في مدينة الجزائر ، لأنه لا يزال متخوفا من ردة فعل أهلها [42]. ومن أهم الاعمال التي قام بها في هذه الفترة قسم المنطقة الى قسمين قسم شرقي مركزه دلس يشرف عليه خير الدين وقسم غربي مركزه الجزائر يشرف عليه بنفسه ،وقد اعتبر هذا التقسيم بدايات التنظيم الاداري بالجزائر ،لانه قسم مناطق النفود الى منطقتين وكل منطقة لها حاكمها وذلك قصد تسهيل التدخلات العسكرية وحماية الحدود ووضع المناطق الغير امنة تحت حماية العثمانيين.

5- تلمسان تستنجد:

---

*دلس : أو هي مأخوذة من الأندلس ، وهي مرسى صغير شرق الجزائر .

[39]عبد الرحمن جيلالي : المرجع السابق ، ص 42 .

[40]مجهول : المصدر السابق ، ص 41 .

*استعمل جند عروج نوعا من السلاح الجديد وهو الفتيلة أو ما يعرف عند الأتراك ب موسكيت .

[41]عثمان الكعاك : المرجع السابق ، ص 275 .

* ويشير صاحب كتاب غزوات خير الدين و عروج أن المقاتلة الإسبان لما أنجدوا ملك تنس تركوا بها أربعة سفن وخمسة من المقاتلة كدعم للقائم ، وما نستشف من هنا أن هذه الفترة كانت مليئة بالخيانات وأن التواجد التركي كان غير مرغوب فيه ، فعند الزعامات الوجود الإسباني وبقاءهم في مراكز الحكم أفضل من بربروسة ومضايقاتهم لهم .

[42]كورين شوفاليه : المرجع السابق ، ص 34 .

***حصار قلعة بني راشد واستشهاد إسحاق**

لم يطب المقام لعروج بمدينة تنس حتى جاءه وفد كبير من مدينة تلمسان[43]، وكان بلغ مسامع عروج أن سلطانها قد أضر بأهلها وعمهم جوره وظلمه فثنى عزمه إليها ، وكان له أخوان قد عزلهما من ملكه[44]،وكان أبو حمو الثالث الذي تسلم مقاليد الحكم بمساعدة الإسبان طبعاً مقابلة التبعية لهم ، لبّى عروج طلب الأهالي واتجه صوب تلمسان ، بعد أن استخلف أخوه خير الدين على الجزائر ككل مرة [45]،وبعد وصوله إلى قلعة بني راشد*، ترك أخاه إسحاق مع فرقة من الجيش ليكون في حمايته من الخلف[46]،وعند اقتراب عروج من تلمسان وجد جيش أبو حمو في استقباله في تعداد عظيم انهزم فيها أبو حمو رغم كثرة جيشه [47]، وأدرك أنه لا طاقة له بعروج ففر من تلمسان* مع جميع أمواله وذخائره حتى لجأ إلى فاس مستجيرا بسلطانها من بني مرين[48].

***معركة تلمسان واستشهاد عروج 1518م**

بعد أن تمكن عروج من تلمسان منع أهلها من التعامل مع الإسبان وتقديم المدد لهم فضاقت أحوالهم ، فاستغل أبو حمو الثالث الفرصة وراسل الإسبان كما سبق الذكر ،ولما بلغ الأمر الإسبان ردوا عليه قائلين :« أنتم لم تطلب منا مددا ولو كنت فعلت لنصرناك ووجهنا لك ما تريد و الآن قد أنعمنا عليك بما تريد فتوجه لعدوك ونحن معك .».[49] وراسلهم مرة أخرى فقل لهم: « مدوني بحملة وافرة من المال و الرجال لأنفقه في سبيل غايتي ، واستخلص به المدينة من يد الأتراك ،وحين

---

[43] محمد الطيب عقاب :المرجع السابق ، ص 26 ، 27 .

[44] مجهول : المصدر السابق ، ص 32 .

[45] محمد الطيب عقاب : المرجع السابق ، ص 27 .

* بني راشد : من أغنى بلاد الله زرعا وذرعاً تعطي الميرة أي الطعام لكل ناحية ، وكانت وهران في هذه الفترة محتلة من طرف إسبانيا ، وتكمن أهمية هذه القلعة – بني راشد – أنها كانت تمد النصارى بالمؤونة ، وقد لام سلطان تلمسان المخلوع النصارى كثيرا لأنهم لو أعانوه بالمال و الرجال ،ما كان حل بهم وما حل ، ولبقيت القلعة الأم الحنون و البقرة الحلوب لهم .

* ذكرنا بني راشد القرية وبها القلعة التي تبعد عن معسكر بنحو 25 كلم ،وعن مستغانم 55 كلم ...أنظر مجهول : غزوات عروج و خير الدين ، ص 32.

[46] مجهول : المصدر السابق ، ص 33 .

[47] أحمد توفيق المدني : المرجع السابق ، ص 59 .

*بالرغم مما فعله عروج إلى أبا زيان ، لما أجلسه عروج على عرش تلمسان ، سرعان ما قد خانه ، الأمر الذي دفع بعروج بقتله ،وقتل كل من يحاول المراوغة ...أنظر عبد الرحمن ، جيلالي : المرجع السابق ، ص 47 .

[48] مجهول : المصدر السابق ، ص ص 33 ، 34 .

[49] مجهول : المصدر السابق ، ص 33 .

ترجع العمالة إلى يدي ترجعون إلى ما كنتم عليه من إمدادكم بالزرع والأنعام وسائر ما تحتاجون إليه ».[50]

وما زاد في تأزم الوضع هو انضمام أبو زيان المسعود الثالث إلى صف عمه أبي حمو ، لذلك لم يجد عروج بداً من إيقاف هذه المشاغبات ، فقتل أبا زيان وكل المناوئين له واغتنم الإسبان هذه المرحلة المضطربة ، فاخذ حاكم وهران يستعد لمهاجمة قلعة بني راشد ، و في نفس الوقت انتبه عروج لهذه العملية من جانب الإسبان فوجه أحد قواده إلى حيث أخيه إسحاق[51]، وزادت إسبانيا إمداداتها و تمكن العدو من إسحاق وقائد قواته* بعد أن استسلم، وقد اختلف في أمر إسحاق ابن يعقوب ، فهناك رواية تذكر أنه قتل من طرف سكان القلعة الذين انقلبوا عليه ، وهناك رواية أخرى تذكر أنه قتل من طرف إتباع أبي حمو ، وفي نهاية الأمر استولى سلطان تلمسان على القلعة ، ثم ذهب هو ومن معه إلى تلمسان وحاصرها لمدة ستة وعشرين يوماً [52].

رغم هذه البطولة التي قام بها النصارى وعملاؤهم من بلاد المغرب ، إلا أنهم أدركوا أنهم لا قبل لهم بمهاجمة عروج رغم افتكاكهم القلعة ، فذهب حاكم وهران **دوكماريو سالماركي** إلى إسبانيا لمقابلة الملك العظيم شارلكان ، فأطلعه على الخطر المحدق بالمستعمرات وقوة عروج البحرية والحربية ، فاستحسن هذا الأخير تدبير حاكم وهران وأرسل جيشا عرمرم نزل بوهران عام 1518 م[53]،

لم يتمكن عروج على إثر القتال الذي جرى بالقرب من القلعة ،ولم يحتمل مقتل أخيه إسحاق ومن معه فاتجه صوب قلعة المشور*، ينتظر إمدادات من قبل سلطان فاس المريني ضاق على إثرها الحصار على عروج ولم يبق منهم سوى 500 رجل ، لكن الخديعة تنجح أحيانا فيما لا ينجح السلاح ، فعند مجيء عيد الفطر تقدمت جماعة من المسلمين وطلبت من حراس المعقل السماح لهم بإقامة صلاة العيد في مسجد المشور فأذن لهم بذلك ،وما كادت هذه الجماعة تدخل المسجد حتى

---

[50] المصدر نفسه ، ص 33 ، 34 .

[51] الحسن بن محمد الوزاني الفارسي – ليون الإفريقي – : وصف إفريقيا ، ترجمة : محمد الأخضر و محمد حجي ، ط2 ، 1983 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، ص ص 26 ،27 .

* الرجل الذي كان يعتمد عليه إسحاق في قلعة بني راشد يقال له " اسكندر " ، وقد خاض معارك طاحنة مع النصارى إلى أن قتل – رحمه الله – ، ولكن الباقين وهي قلة استمرت في القتال إلى أن استشهد الجميع رحمهم الله ...أنظر مجهول : غزوات عروج وخير الدين ، ص 34 .

[52] صالح عباد : المرجع السابق ، ص 46 .

[53] محمد الطيب عقاب : المرجع السابق ، ص 28 .

* قلعة المشور : هي من الآثار القديمة بمدينة تلمسان بني عام 540هـ ، وسكنها ولاة دولة الموحدين ،وبعضهم يقول ملوك بني زيان ، سمي المشور لأنهم كانوا ينصبون فيه ديوان وزرائهم ، وبقيت منه بقايا إلى يومنا هذا ...أنظر مجهول : غزوات عروج وخير الدين .

أخرجت السلاح وشرعت في قتال الأتراك فتصدت لها جماعة عروج، فقرر هذا الأخر الخروج من المشور نحو بلاد الساحل وكان الإسبان يترصدونه ، وجرت بينهم معركة عنيفة [54]،استشهد بعد هذه المعركة كل رجال عروج وبقي يدافع عن نفسه لوحده ضد **القائد كارسيا** الإسباني إلى أن تمكن منه النصارى*، فقاموا بنزع رأسه وساروا به نحو وهران ثم أرسل في كيس إلى إسبانيا ثم انتشر إلى معظم دول أوربا ، وكانت نهاية رأسه هذا أن وضع في دير القديس سان جيروم [55].

وفرحا بهذا النصر أخذت ملابسه إلى إسبانيا واخذوا يطوفون بها في الشوارع ، ويروى أن جثمانه قدم به إلى العاصمة فدفن بجوار ضريح سيدي رمضان [56].

وأعاد الإسبان أبا حمو الثالث المحتضر على أن يكون حليفهم ضد الأتراك ،ويدفع لهم سنويا عشر ألف دوكة أو بياسطر*، و12 فرصا و 6 صقور رمزا لخضوعه للإسبان

خامسا -<u>ربط الجزائر بالدولة العثمانية</u>

كان اتصال الإخوة بربروسة أول مرة بالباب العالي عام 1518 م بعد دخولهم الى جيجل، فبعثا رسالة إلى سليم الأول ومعها هدية عظيمة ، ورد عليهم السلطان بإرسال قوة عسكرية مكافأة لهما و تشجيعا منهم لبربروسة على جهادهم في البحر لا كممثلين لهم بالجزائر.[57]

لقد رأى خير الدين بادئ الأمر أن الإسبان سوف يتوجهون إلى الجزائر ولم تكن له القوة الكافية لمواجهتهم ، وقد عبر خضر عن نية الرحيل و العودة من حيث جاء بعد أن فقد جميع إخوانه ،وهو نشاط البحري أو النزوح إلى مدينة ساحلية أخرى ، لكنه لما رأى النصارى يعودون إلى وهران بعد أن نصبو عاملهم أبا حمو على عرش تلمسان*، وأرسلوا أجزاء من قواتهم إلى اسبانيا ، ،وفي هذه السنة

---

[54]أحمد توفيق المدني : الرجع السابق ، ص ص 192 ، 193 .

* توفي عروج في شهر ماي 1518 م ، شهر جمادي الأول سنة 924 هـ ، وعمره يومئذ 50 سنة ، و المكان المسمى مقطع وادي الملح أو Rio Salado ، وهناكمن يقول عند جبال بني موس ،يوم عيد الفطر ، وهناك من قال قرب جبل بنتي يزناسن .

[55]مجهول : المصدر السابق ، ص 34 .

[56]عبد الرحمن جيلالي ، المرجع السابق ، ص 44 .

*الدوكة أو بياسطر : عملة إسبانية .

[57]أحمد توفيق المدني : المرجع السابق ، ص 197 .

* تلمسان حسب ما وصفها الإدريسي في كتابه نزهة المشتاق وهي مدينة مشهورة بالمغرب ، عظيمة وعليها صور حجارة وخلفه صور آخر ، نزل رجل من أهل البربر يقال له محمد بن قاسم بن سليمان بن محمد بن سليمان .

جدد خير الدين سور مدينة الجزائر*، الذي أنشأه بلكين ملك صنهاجة من قبل[58] ،كما عدل عن رأيه وأخذ برأي رفاقه ورأي أغلبية العلماء رأي جميع من أحبه بالبقاء في المدينة لحمايتها ورد العدوان عنها [59].

وقد كانت الأوضاع في المغرب الاوسط مضطربة ومتدهورة خاصة بعد معركة تلمسان ، حيث طلب سلطان بني حفص من خير الدين الاعتراف به وبحكمه كما قامت ثورات في عدة مناطق مثل زواوة و تنس*، وشرشال*، إضافة الى الخطر الخارجي المتمثل في الإسبان ، إن هذه الحالة المتردية التي وجد خير الدين نفسه فيها ، ، جعلته يظهر الولاء إلى السلطان سليم الأول الذي كان في أوج قوته ، حيث أصبح يسيطر على جزء مهم من العالم الإسلامي – مصر و الشام [60]

وفي الحقيقة أن خير الدين قرر الاستعانة بالدولة العثمانية حتى يتمكن من الحصول على المال و القوة العسكرية اللازمة لمواجهة الخطر المحدق به، خاصة أن إسبانيا كانت تتزعم العالم المسيحي وتعتبر القوة المهيمنة في شمال إفريقيا وجنوب أوربا ، وتحقيقا لهذا الهدف قام الخضر ببناء أسطول حربي مجهز بوحدات بحرية خفيفة وسريعة الحركة ، لقد عزم خير الدين قبل هذه التجهيزات على السفر إلى الروم لأجل الغزو ومواجهة هذه الأخطار من هناك ، وجمع أهل البلاد وقال لهم :« **إني عزمت السفر إلى حضرة السلطان ، وأمنت بلادكم من العدو بما تركت فيكم من جهاد ، ومن وصل إليكم من أهل الأندلس ، وما تركت عندكم من عدة ، لقد تركت أكثر من 400 مدفع ولم يكن في بلادكم مدفع واحد**» ، وما خاطبه به الناس أنهم قالوا له :« **أيها الأمير لا تطيب أنفسنا بفراقك ولا نسمح لك بذلك ، فالله الله أمة سيدنا محمد فإن الله يسألك عنهم**» ، ومن جملة ما خاطبه به العلماء أن قالوا :« **أيها الأمير يتعين جلوسك في هذه المدينة لأجل حراستها و الذب عن ضعفاء أهلها ، ولا رخصة لك في الذهاب عنهم وتركهم عرضة للعدو** » ، فعند ذلك قال لهم خير الدين : " **أنتم**

---

* وهو بناء مكسر للأمواج على طول 200 متر وعرضه 25 متر ، وعلوه 4 متر ، وبط بين المدينة وجزرها يمشي .

[58]عبد الرحمن جيلالي : المرجع السابق ، ص 44 .

[59]صالح عباد : المرجع السابق ، ص 46 .

* مرسى صغير بعمالة الجزائر قرب وهران يسكنه 5000 نسمة ،ونعني به تنس .

* كانت في عهد الرومان عاصمة مملكة كبيرة ، ومرساها الآن في غاية الصغر ، حكمها خير الدين في 1520م ، تقع غرب مدينة الجزائر ،ونعني به مرسى شرشال .

[60]جون بول وولف : الجزائر و أوربا (1500 – 1830م) ، ترجمة : أبو القاسم سعد الله ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1986 م ، ص 32.

رأيتم ما وقع من اللاعبين الكفار ولا يؤمن عواملهم وقد ظهر لي من الرأي أن نصل بيدنا بطاعة السلطان الأعظم مولانا سليم ".[61]

رضي أهل المدينة باقتراح خير الدين ،وكتبوا كتابا كما أمرهم وكتب هو كتابا آخر ،وقد نشر الدكتور عبد الجليل التميمي ترجمة عربية لوثيقة تركية محفوظة في دار المحفوظات التاريخية بإسطنبول تحت رقم 6456 ، وهي رسالة أهالي الجزائر على اختلاف مستوياتهم بتاريخ 26 أكتوبر إلى 3 نوفمبر 1519 م ، وكان هدف خير الدين ربط مصير الجزائر رسميا بالدولة العثمانية ، رسالة موجهة باسم جميع الطبقات من القضاة والخطباء و الأئمة و التجار والأعيان وكافة السكان ، ،وهذا دليل على رغبتهم الجامحة في التخلص من الذل وهيمنة النصارى التي بدأت تتلاشى من موانئ المغرب [62].

الخاتمة

إن ما يمكن أن نخلص إليه في بحثنا هذا أن التدخل العثماني في الجزائر لم يكن احتلالا مفروضا عليها بالقوة، بل كان تدخلا بطلب من أهالي الجزائر الذين ذاقوا الظلم والقمع من الاحتلال الإسباني .وقد كشفت لنا المصادر التاريخية العثمانية، وفي مقدمتها مذكرات خير الدين بربروس التي تعد أهم شهادة على تلك الفترة حقيقة التدخل وأبعاده وخلفياته .كما قدمت لنا هذه المصادر مفهوما متوازنا وواضحا للقرصنة العثمانية القائم على معنى الجهاد البحري والعمل الخيري ومساعدة المظلومين والمقهورين .وهو ماتم طمسه من قبل العديد من المؤرخين الغربيين وغيرهم الذين حاولوا تقديم صورة سلبية على القرصنة العثمانية، على أنهم جماعة من اللصوص وقطاع الطرق، لا شغل لهم سوى السلب والنهب والقتل .

---

[61] جمال قنان : نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر (1500 – 1830م) ، المؤسسة الجزائرية للطباعة ، الجزائر ، ص 43 .

[62] حلمي محروس إسماعيل : تاريخ العرب الحديث – من الغزو العثماني إلى نهاية الحرب العالمية الأولى – ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، 1997 م ، ص ص 25 ، 26 .